" المَلَاك"

ربيعة قاسم(شجن) / الأردن

..حينها تأخر الليل وأسدل ستاره، ولم يبدُ منهم خبرًا، فأنكشف الستار عن نشيج الخالات المستتر تحت رداء الصمت خوفًا من وهن الجد العجوز في جلسة على حافة الانتظار سيّد تفاصيلها بعد الدموع دعاء الشيخ الذي اعتلى ذقنه المشيب، وطمأنته للصبايا الخائفات

: توكلوا على الله سيكون بخير .

كان في مخيلة الجميع أن الوضع أخطر مما يتصورون، وكيف حدث كل ذاك؟ وكأنه لمح البصر .

ممرات نفسية ضيقة دخلت فيها الأسرة التي تنتظر أمام موقد النار في أُمسية شتوية قاسية الملامح ، بائسة الطّالع.

الكل يتهامس : البارحة لم يكن به شيء، ما شاء الله ،أيُعقل أن هذا الملاك يخفت نوره فجأة؟

دموع حارقة انجرفت سيلًا على كل المحيطين،وأخبار متذبذبة ما بين "نزلة برد" و

"أنفلونزا حادة" وفي النهاية أُكذوبة "الزائدة اللحمية " في الحلق.

أُخذ على حين غرة ، ذاك الملاك الذي كان الفرحة الأولى في حياة ذويه.

وعلى غير عادته ذاك الشتاء، جاءنا بنذائر البؤس ، والأحزان، ولم يأتِ ببشرى خير تُسعد المُنتظرين، لما آل إليه الحال، ولما وصلت إليه آراء الأطباء والمختصين.

عادوا إلى منزلهم يحملون تلك الزائدة اللعينة في عبوة شفافة ، تلك التي قال أهل الطب أنها تُعيق الأنفاس، وتحبس صوته عن طرق أسماعنا، وقد قارب عمره العامَين.

حُرمنا لذة صوته ، ولذة الشغف الأول لمحاولات درج خطواته الصغيرة على هذه المساحة الشاسعة التي بخلت عليه بملامستها لباطن قدميه.

والأيام سراعا لا تنتظر أحد، ولا تلتفت خلفها، تمر متشابهة، كئيبة، لا تحمل أي بريق أمل، وحيث أن التشخيص الأولي ، لا بل الأزلي الذي لا جدال فيه يضعه في خانة العاجزين

الآبدين.

نقص في تحلل المادة البيضاء في الدماغ أي ابتلاء هذا؟ وأي نوع من الاختبارات لم يكن بالحسبان.

أقدام تقصُر خطاها، وكلمات حبيسة الصدر المُتعَب فوق تعب الصمت الطويل

طفولة لا تشبه مثيلاتها، وعيون تملؤها أسئلة ، لا ينطقها لسان ؛ ليبقى العَوَز رفيق العمر الصدوق.

كل ســاعة تمر هي بمثابة حِمل جديد، يُثقل كاهل المُنتظرين المُتفاوتين، فما بين أم وأب كان هو فرحتهم الأولى ، وثمرة الحب الدانية، وكما حال الأهل ، عليه يُعوِّلون، ويطمحون، ويرجون، ويبذلون، ..ولكن ، ذهب الشغف، وغابت شمس الأمل، وتلاشى الحلم الجميل .

كان جواب الأطباء واضــحا، لا علاج لهذه الحال ، ولكن قد يُخفف الوضــع بقليل من العلاج الفيزيائي وهو الذي فتح بابا جديدا من أبواب الصــراع مع الأيام ، وما جابهته الأم التي يحدوها الأمل ..وتُلاحق الأمنيات الهاربة .

فكان لزامًا عليها أن تقطع مسـافة (٩٠كم) لتصـل إلى مركز العلاج ، ناهيك عن تكبّد مشـقة حمل الطفل الذي قارب الأربعة أعوام ، وعناء المواصلات العامة ، وكآبة الانتظار .

وما كان يلاقيه الأب من تكاليف الإنفاق على العلاج، وعلى الجلسات، وعلى رحلات الذهاب والإياب .

دعوات حمّلها إياه كل مَن رآه ، عسى الله أن يُعجّل بشفائه، ويُطلق أقدامه، ويُنطق لسانه.

وَحدَها خالته المُعلّمة التي كان همّها مُختلفا فقد كانت تنتظر دخوله المدرسة ،ليكون ذات يوم أحد طلابها النجباء، كان كل ما ترجو أن لا يتأخر عن زملائه، ويشافيه الله ويُعافيه ليلتحق مع أقرانه ولا يسبقوه.

الخامس من أيلول من العام (٢٠١٩) كان يوما يحمل أثقال " الســت ســنوات" التي طُويت ما بين دمعة تجف، لتنبت أُخرى .

بكت كثيرا ..ها قد بدأ العام الدراسي ، لم يكن له به نصيب من حقيبة عجلات كما يُفضل الصـغار، ولم يَنَل قرطاسية، وعلبة ألوان، ولم تضبط أُمه مُنبها لايقاظه في الصباح .

" ما أشبه هذه السنة بسابقتها" قالت ..وحمدت الله